الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

أية حضارة يريد العرب.. شرقية أم غربية أم كليهما معاً؟

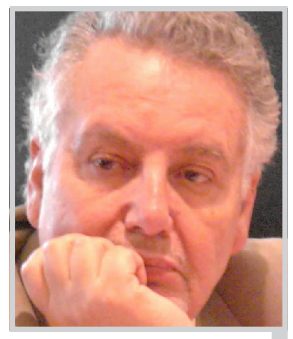

د. شاكر النابلسي

يدّعي بعض المعلقين والكتاب العرب ، أن الصراع الخفي أو المعلن بين الشرق والغرب ، هو صراع حضاري ، لا ديني. بينما هو في حقيقته صراع ديني-إن وُجد - لا حضارة لدينا الآن ، تصارع الحضارة الغربية. ونحن منذ خمسة قرون إلى الآن ، لم نُقدم للعالم وللبشرية فكرة مفيدة ، أو آلة مفيدة ، أو اختراعا نافعا. ولم يبرز منا فيلسوف أو مفكر مؤثر ، كما لم يظهر منا عالم ، أو مخترع ، أضاف شيئاً جديداً ومفيداً إلى الحضارة الإنسانية. وما زلنا أمة "سحر البيان" الطروب.

وما دمنا هكذا عُراة، دون حضارة حديثة، فأية حضارة نريد؟

ماذا نعني بالتقدم الحضاري؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال دعونا نؤكد أن فكرة التقدم وتعبير التقدم الحضاري، فكرة حديثة ومفهوم حديث. وهذا لا يعني بالضبط أن الإنسانية لم تشهد تقدماً إلا في بداية من القرن السابع عشر، ولكنه يعني أن التقدم في الماضي لم يجد من المفكرين من يصوغه صياغة إنسانية شاملة لماضي الإنسان وحاضره ومستقبله.

إذن، ففكرة التقدم ومفهوم التقدم مرتبطان بوجود مفكرين قادرين على صياغة معنى التقدم في عصر من العصور وليس مرتبطاً بوجود التقدم نفسه. فوجود التقدم نفسه لا يُشترط أن نتعرف عليه، إذ لم يوجد من المفكرين من يصوغه ويقدمه كأثر إنساني متكامل.

لكل حضارة تقدمها المتميز

الحضارات القديمة السابقة كافة، كان فيها تقدم مميز، ولكننا لم نستطع إدراك ماهية هذا التقدم تماماً لافتقار هذه الحضارات لمفكرين قادرين على صياغة فكرة شاملة للتقدم، وتقديمها للتاريخ.

ولقد أدرك هذه الحقيقة رائد كبير من الرعيل الأول للمفكرين العرب في القرن العشرين، وهو المفكر الشامي الفلسطيني الأصل، قسطنطين زريق (١٩٠٩-٢٠٠٠) عندما قال بأنه "لم يقم حتى العهد الحديث من صاغ فكرة شاملة تقول بالتقدم الإنساني، خلال التاريخ الماضي وامتداداً إلى المستقبل غير المنظور وغير المحدود، وتدعو إلى الانسياق في مجراه".) قسطنطين زريق، مطالب المستقبل العربي، ص١٢٢).

ويقول زريق، إن فكرة التقدم حديثة المنشأ بالنسبة إلى تاريخ الإنسانية المديد. وظهورها وتطورها، مرتبطان أشد الارتباط بتاريخ الغرب والفكر الغربي في العصور الحديثة. ولو أردنا أن نتتبع ذلك التطور بصورة دقيقة ومفصلة لاضطررنا إلى استعادة هذا التاريخ بكامله.

ماذا نعني بالتقدم؟

إننا نعني بكل بساطة أن يتم تقدم بالأفكار والتطبيقات، واتخاذ الوسائل اللازمة والكفيلة، لتحسين مستوى حياة الناس الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية. وهذا كله لن يتأتى إلا إذا سار بوتيرة واحدة، واتخذ نهجاً عصرياً، تراعى فيه مصلحة الفرد بالدرجة الأولى، وكيفية الرقي بحياته، حتى ولو تم ذلك بالتعارض مع الموروث المقدس، وبالمخالفة مع الشروط التقليدية، فيما لو علمنا أن لا تعارض بين مصلحة الفرد وبين الموروث المقدس. وإن هذا التعارض - فيما لو وجد - فهو من صنع الفقهاء، وليس من النصوص المقدسة. وأن بعض الفقهاء كان على درجة كبيرة من الحصافة - كالطوفي الحنبلي - حيث قالوا:

"إذا تعارض النص مع المصلحة رجحت المصلحة على النص".

وعندما قال لهم المرتجفون: كيف نُهمل النص، ونُرجحه على المصلحة؟

جاءهم الرد بالقول:

"لم يرد نص يعارض المصلحة، وما جاء نص إلا لخدمة المصلحة".

طرائق التقدم الحضاري

في الفكر العربي

يزعم بعض الباحثين، أن مفهوم التقدم عند مفكري عصر النهضة العربية لم ينتقل إليهم في البدء من فلاسفة عصر التنوير الأوروبيين من أمثال: فولتير، وكوندورسيه، ومونتسكيو وغيرهم، وإنما جاءهم من مصدرين رئيسيين لم تكن أفكار التنويريين إلا رافداً تالياً لها.

وأما المصدر الأول، فكان وعيهم للهوة التي باتت تفصل عالم العرب والشرق والإسلام عن عالم الغرب، الذي لاحظوا أنه يحث الخطى نحو طريق التمدن والرقي والتقدم بثبات.

والمصدر الثاني، قراءتهم لابن خلدون التي تحتل فيها مشكلة أفول العمران (التقدم الحضاري) المرتبة الأولى.

والرد على هذا الزعم غير السليم هو:

لماذا لم يع مفكرو عصر النهضة في القرن التاسع عشر الهوة التي تفصل بين الشرق والغرب إلا عندما جاء نابليون بحملته على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ورحل في بداية القرن التاسع وقد ترك وراءه أفكار عصر التنوير ومنجزات عصر التنوير العلمية. وفي هذا يقول حافظ الجمالي: "إن فكرة النهضة لم تطرح نفسها على الفكر العربي إلا مع غزو مصر على يد نابليون في عام ١٧٩٨ وربما في مصر وحدها دون غيرها لأنها كانت مكان الغزو وهدفه". ويقول السيد ولد أباه : "إن الفكر العربي لم يكتشف التنوير إلا من خلال الاحتكاك بالغرب الاستعماري وخصوصاً مع النهضة المصرية وحملة نابليون". (أنظر: حافظ الجمالي، موقف المثقف من إشكالية النهضة من حيث الرؤية الأيديولوجية، ص٣١، وانظر: السيد ولد أباه، أزمة التنوير في المشروع الثقافي العربي المعاصر- إشكالية نقد العقل نموذجاً، ص٤٠).

في حين أن الهوة التي فصلت بين الشرق والغرب كانت موجودة، وبدأت من القرن السادس عشر؛ أي قبل قرنين تقريباً من حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، ولولا هذه الحملة لظل الشرق ومفكروه في سبات عميق عما يجري في أوروبا من تقدم حضاري، وذلك بفضل الستار الحديدي الثقافي والديني الذي فرضته السلطة العثمانية طيلة أربعة قرون من الزمان (١٥١٧-١٩١٨) على العالم العربي والإسلامي، وعلى امبراطوريتها.

من ناحية أخرى، فإن فكر ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) في "المقدمة"، كان حاضراً منذ القرن الرابع عشر؛ أي قبل مجيء حملة نابليون على مصر بأربعة قرون، فلماذا لم يفطن مفكرو النهضة إلى هذه المقدمة، وما جاءت به من فكر بشأن مشكلة أفول العمران إلا في القرن التاسع عشر، وبعد مضي خمسة قرون على كتابة هذه الأفكار؟ وهذا كله - في زعمي - يدحض الفكرة القائلة، بأن مفكري عصر النهضة لم ينهضوا بفعل أفكار عصر التنوير، وإنما جاء إليهم من مصدرين مختلفين. ومثل هذا القول من قبل شكري النجار وغيره، يأتي من باب أن الغرب وحضارته وفكره كانت دائماً كطعام البخيل: مأكول مذموم. فنحن نتأثر بهم ونأخذ عنهم ونستفيد من إنجازاتهم في تيسير حياتنا، ثم ننكر عليهم وعلينا تأثرنا بهم. وتلك واحدة من عُقد التعالي والعصبية والنفخ الطاووسي والازدواجية الحضارية التي تتصف بها الشخصية العربية والتي تكلم عنها بعض علماء النفس العرب، كما يقول توفيق الناصر (الخداع الذاتي ومفترق الطرق، ص٦٦-٧٤).

ضرورة سلوك كل وجوه المعرفة

كانت الطرائق المؤدية إلى التقدم الحضاري في فكر عصر النهضة المتقدم، تسلك كل وجوه المعرفة، ولم تقتصر على طريق واحد. فقد كان طه حسين وجيله من الأدباء والمفكرين يسلكون مسلك عصر الأنوار الأوروبي، الذي كانوا معجبين به. فهم برغم أنهم كانوا "أمناء للذوق المدرسي، فقد كانوا يسعون لجعل مكتسبات الفكر الجديدة مستساغة، وفي متناول العدد الأكبر من الناس، ومن أجل ذلك كانوا يحتاجون إلى الإفادة من أنواع المعارف كافة وجميع الأطر وجميع أساليب التعبير من الدراسات المتعمقة لمواضيع متخصصة إلى البلاغة السياسية والدينية إلى وسائل التعبير الأخرى كافة"، كما قال محمد أركون ("الفكر العربي"، ص ١٥٧). وقد أدى هذا كله إلى صرف اهتمام فكر النهضة المتقدمة إلى الاستجابة الفورية لتحديات الحياة الجديدة. ومن ثم لم يقم هذا الفكر بإزالة العوائق المعرفية، التي كانت تعرقل خطاه، والتي ظهرت آثارها خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. والتي ما زلنا إلى الآن نعاني نتائجها وأسبابها.

توفيقية عصر النهضة المتقدم

لقد تميز عصر النهضة المتقدمة في جيل طه حسين، وأحمد أمين، والزيات، والعقاد، والحكيم، وهيكل وغيرهم، أنهم كانوا توفيقيين، ولم يقوموا بالقطع في المواقف. بل كانت مواقفهم الفكرية والحضارية مواقف مترددة متراجعة خائفة: خطوة إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن هؤلاء التوفيقيين، كانوا غير واثقين مما يقولون، ويفكرون به، ويقدمون عليه.

فبرغم أن المجتمع العربي كان بحاجة شديدة إليهم وإلى أفكارهم النهضوية، وهو ما عبر عنه أحمد الزيات بقوله في العدد الأول من مجلته "الرسالة" في عام ١٩٣٣: "إن هذه الطبقة هي أقوى الأركان، التي يجب أن نبني عليها نهضتنا. وهي الطبقة التي جمعت بين الثقافة الغربية، والثقافة الدينية الإسلامية." إلا أن هذه الفئة لم تقم ببناء النهضة، وفشلت في أن تكون فئة مثقفة توفيقية، تستطيع أن تبني عصراً تنويرياً يستمر ويتوالد منه عصور أخرى، كما حصل في أوروبا.

لماذا فشلت التوفيقية في التنوير؟

في زعمي أن الأسباب تعود إلى التالي:

١- لم تكن الأرضية العربية والمصرية الثقافية والاجتماعية والتعليمية جاهزة لمثل هذه النهضة وأفكارها. فالأمية كانت منتشرة بدرجة عالية جداً، والتعليم كان قاصراً على فئات معينة من الناس. وهذا ما أشار إليه بعض التوفيقيين من مفكري عصر النهضة المتقدم كتوفيق الحكيم الذي تساءل في روايته "يوميات نائب في الأرياف" عن صلاحية تطبيق "تشريعات نابليون" في الريف المصري. كما أشار إلى صعوبة تطبيق أي إصلاح نهضوي من دون نشر التعليم والقضاء على الأمية والجهل. كذلك قال هذا الكلام نفسه طه حسين، في كتابه المؤلم والممنوع والمصادر في ذلك الوقت: "المعذبون في الأرض". وهو ما ينطبق أيضاً على باقي أجزاء العالم العربي. لقد كان بين أحلام السلطة والمثقفين من جهة وبين أرض الواقع العربي بون شاسع وجرف عميق، كان على أصحاب السلطة ومفكري عصر النهضة المتقدمة والمتقدمة أن يردموه ويمهدوا الطريق أمام الناس، قبل أن يضعوا الناس على طريق ملأى بالحواجز، والعثرات، والعقبات، والمطبات. وهذا يذكرنا بأحلام الخديوي إسماعيل مثلاً، في تحويل مصر إلى "قطعة من أوروبا"، من دون مراعاة للمستويات الثقافية والاجتماعية. وأن مصر التي كان الخديوي إسماعيل، يريد لها أن تكون قطعة من أوروبا، كانت الأمية فيها منتشرة بنسبة أكثر من ٩٥ بالمئة. وكان على الخديوي قبل أن يحلم بهذا الحلم، أن يقضي على الأمية، ويوسع من قاعدة التعليم المدني والوضعي، حتى يهيئ الأرضية اللازمة والتربة المطلوبة لزرع الحضارة الغربية في مصر، وتحويل مصر إلى قطعة من أوربا، كما كان يحلم ويتمنى.

وكذلك يذكرنا ما سبق، بأحلام طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" مثلاً، الذي أدرك أهمية التعليم والقضاء على الأمية، ومن هنا راح ينادي بإلزامية التعليم، وأطلق شعاره المعروف : "التعليم لكل الناس كالماء والهواء"، إدراكاً منه كمثقف، ومربٍ، ورجل تعليم، من أن لا حضارة، ولا تقدم حضاري، يمكن أن يتحقق من دون نشر التعليم وتهيئة الأرضية اللازمة لهذا التقدم.

٢- كانت الأرضية العربية أرضية دينية محضة، برغم ظهور مجموعة قليلة من العلمانيين في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. وكان على مفكري التقدم والنهضة أن يبدأوا بالإصلاح الديني أولاً، بتنقية الدين من الخرافات، والأساطير، والخزعبلات، والتقاليد، والأفكار الاجتماعية، التي لحقت به على مر القرون، قبل أن ينادوا بتبني الأفكار، والبرامج المعرفية، والإدارية الغربية.

٣- كانت أهداف وأفكار التوفيقيين في هذه الفترة، تتم دون التشاور مع المؤسسة الدينية، ودون رضاها، ودون الحوار معها، مما ترك إحساساً قوياً لدى المؤسسة الدينية بضرورة إسقاط كل مشاريع التوفيقيين، والتربص ، وبأفكارهم، ونتاجهم الأدبي والثقافي، وطردهم من الحلبة الاجتماعية والتعليمية والثقافية. وهو ما تمّ مع طه حسين، وعلي عبد الرازق، ومنصور فهمي، وإسماعيل مظهر وغيرهم.

٤- كان في أفكار التوفيقيين النهضويين هؤلاء، شيء من رعونة الفكر وحماسه، دون النظر إلى الواقع الثقافي والاجتماعي وارتباطاته وشروطه. وقد تجلت هذه الرعونة في مواقف فكرية كثيرة وقفها مثقفو عصر النهضة المتقدمة.

٥- لم يتخلص مفكرو عصر النهضة المتقدمة من التأثير الهائل للتراث المقدس وضغطه الفكري المتزايد. وظلوا مترددين نحوه. ساعة يربطون العلم بالإيمان كما كان موقف محمد حسين هيكل. وساعة يرتدون ويتراجعون ويعتبرون ربط العلم بالإيمان ضرباً من العبث، كما كان موقف توفيق الحكيم. وهكذا انتهى عصر النهضة المتقدمة على أبواب الحرب العالمية الثانية، ومفكرو عصر النهضة ومثقفوها غير متفقين على أي الطرق نسلك، وأي الطرق نترك. وانتهى هذا العصر دون بتّ، أو حسم، أو قطع. وامتد هذه الوضع إلى نهاية القرن العشرين.

٦- وقع مشروع النهضة العربية ما بين الحربين العالميتين في خطأ تبنّي أفكار عصر الأنوار، التي سادت أوروبا في القرن الثامن عشر، وحاول تطبيقها على مجتمع القرن العشرين المتخلف في العالم العربي، دون مراعاة لفارق الزمن وفارق المستوى الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي. فقد كان مفكرو هذه الفترة "يبحثون عن الأصول الضائعة للفكر المعاصر لهم"، كما قال غالي شكري (ثورة المعتزل، ص ٦٥).

٧- كان مشروع النهضة والتقدم الحضاري، الذي قام بين الحربين العالميتين عبارة عن تقليد للحياة الغربية بجميع مستوياتها. ولم يكن تجديداً للفكر العربي، من حيث اعتُبر التجديد في ذلك الوقت هو السقوط في التقليد. ولم يتم التفريق من قبل مفكري عصر النهضة بين التجديد والسقوط في التقليد. ذلك أن "تجديد الفكر يتطلب عدم السقوط في التقليد، لأن التجديد يتطلب شيئاً آخر غير أن يصبح الإنسان نموذجاً للإنسان الآخر، والفكر نموذجاً لفكر آخر" ، كما قال الباحث المغربي عبد الكريم غلاب (الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات، ص ٣٢).

للتاريخ .. بعد أن اعتذرت بريطانيا .. الحكومة العراقية تتحدى الصعوبات

حليم الأعرجي

عندما انبثقت الحكومة العراقية سنة ١٩٢٠ على خلفية ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ وموافقة بريطانيا على الانسحاب من العراق وإقامة حكومة عراقية وطنية بدأت بأول مجلس للوزراء رأسه عبد الرحمن النقيب ولم تكن بين الوزارات التسع التي احتوتها وزارته ، وزارة الخارجية ، لان الدولة الجديدة ، مازالت في حينها غير مستقلة ، ولم يكن من حقها تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدول الأجنبية ، وكذلك لم يكن لها تمثيل قنصلي وإنما كانت دولة الانتداب هي التي تقوم برعاية المصالح العراقية في الخارج .

وفي وزارة النقيب الثانية، بدأت الحكومة العراقية بمفاوضة الجانب البريطاني لعقد معاهدة عراقية - بريطانية لسنة ١٩٢٠ وقد حلت بنود هذه المعاهدة محل صك الانتداب الممنوح لبريطانيا في مؤتمر سان ريمو ، وقد نصت المادة الخامسة من هذه المعاهدة على ما يأتي :

(لجلالة ملك العراق حق التمثيل الدبلوماسي في لندن وغيرها ، وفي الأماكن التي لا ممثل فيها لجلالة ملك العراق يوافق جلالته عن إن يعهد لبريطانيا بحماية الرعايا العراقيين ومع ذلك فإن وزارة النقيب الثالثة ، هي الأخرى كانت بلا وزارة خارجية ، بيد إن المرة الأولى التي ظهرت فيها وزارة الخارجية بين أسماء الوزارات ، قد تولاها السعدون نفسه ليدلل على أهميتها وضرورتها وعزمه على تفعيلها وتأكيد دورها، وقد تكرر ذلك وزارة جعفر العسكري التي أعقبت وزارة السعدون في ٢١ / تشرين الثاني / ١٩٢٦ .

وقد جاء في منهاج الوزارة (توسيع التمثيل الدبلوماسي الخارجي وتأسيس الصلات مع الدول ، سيما الدول المجاورة منها ، وطلب العسكري من المندوب السامي البريطاني مساعدة العراق في تدريب عدد من العراقيين على الأعمال القنصلية والدبلوماسية ، وقد اعترضت على هذا المقترح الذي رحبت به وزارة المستعمرات البريطانية ، وجاء اعتراضها على أساس إن (المقترح يعطي العراقيين امتيازا حرمه البريطانيون من الهنود، وردت وزارة المستعمرات إن في الأمر لبسا إذا لا يعني المقترح قبول العراقيين بقصد التعيين في السفارات البريطانية كما هي الحال مع الهنود ، إذ إن الحكومة العراقية تنظر في تأسيس قنصليات عراقية في الخارج وأجاب المقيم السياسي والقنصل العام البريطاني في بورشهر (الكرنل هاورث) إن الفكرة تبدو غير مستحسنة ، لان الموظف العراقي الذي سيرسل للتدريب في بورشهر ، إن لم يكن مؤيدا لبريطانيا كل التأييد ، فأنه سيجد نفسه في بعض الحالات في موقف معارض لمصالح بريطانية ، كما لايجوز الافتراض بأن كونه مؤيدا لبريطانيا يستلزم بالضرورة تمسكه بموقفه هذا في المستقبل بصورة دائمية لذلك فأنه يرى من الأفضل إن يجري تدريب هؤلاء الموظفين في أماكن أخرى مثل فلسطين وغيرها .

أما القنصل البريطاني في دمشق (أي . بي . هول) فقد كان اشد المعارضين للفكرة في حين أبدى القنصل البريطاني في بيروت (ه. أي . ساتو) عدم ممانعته بإلحاق أي متدرب عراقي بقنصليته واستنادا إلى هذه الردود أبدت وزارة المستعمرات تراجعا ، في تلبية الطلب مشيرة إلى أنها ترى فيه بعض المحاذير ، وهي تجده غير عملي ، ولذلك تقدمت باقتراح مفاده ، إرسال موظف قنصلي بريطاني كبير لتدريب العراقيين على الأعمال القنصلية ، غير أنها عادت فتراجعت أيضا ، مشيرة إلى أنها لا ترى إن الاقتراح جدير بالأخذ به. وذلك لأنه يسهم بزيادة عدد الموظفين البريطانيين في العراق الأمر الذي ينعكس على القوى المعارضة تترصد نقاط الضعف !! وبعد كل ذلك ، وطول انتظار ، قررت الحكومة البريطانية رفض الاقتراح .

وبرغم ذلك لم تتردد الحكومة العراقية في الماضي قدما في مجال تأهيل ملاكاتها ، وتمكنت في عام ١٩٣٠ من تعيين أول قنصل لها في كرمنشاه ، السيد كامل الكيلاني ، شقيق رشيد عالي الكيلاني ، ثم بعد ذلك عينت السيد أحمد زكي الخياط قنصلا لها في المحمرة ، وبعده عينت الدكتور عبدالله الدملوجي قنصلا فخريا في الإسكندرية والقاهرة .

وقد أثار تعيين الدكتور الدملوجي قنصلا في القاهرة والإسكندرية مشكلة مع السعودية ، سنتناولها في الحلقة قادمة .

الملك فيصل الاول

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:

١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.

٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.

٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@yahoo.com